الأهرام

المصدر : أهـــــرام

التاريخ : ٢٣ فبرايـــــر ٢٠٠٠

شكرا وحمدا لله الذى أمد فى عمرى، ليس لكى أعيش لحظة «ميلاد» الألفية الثالثة، ولكن لكى أستمتع بمشاهدة أحداث زيارة البابا يوحنا بولس الثانى لمصر، فمنذ أن قرأت كتابا عنه His Holitness للكاتبين كارل برنشتاين (امريكى) وماركو بوليتى (إيطالى) (صدر عام١٩٩٦ وترجم للعربية عام ١٩٩٨)، أدركت - كما سيدرك القارىء معى - أنه يحمل تركيبة إنسانية كاريزماتية ومقومات شخصية متفردة (ربما غير متكررة) شاركت فى صياغة سياسة «العالم» فى الربع الأخير من القرن العشرين، وأتوقع أن قداسته قد خطط - رغم كبر سنه وصعوبة حركته - أن يتجول فى الشرق الأوسط لعله يحقق - كما حقق خلال الثمانينيات - مايتصوره، مستقبل تفاهم وحوار يعم المنطقة فى غضون نيف وعشر سنوات قادمة.. فتصريحاته والقراءة المتانية المتعمقة لخطاباته المعلنة توحى بذلك.

ولذا رغبت فى هذا المقال أن أسرد - فى عجالة - بعض ملامح عن تاريخه، يعقبها تصور عن :

آثار زيارة البابا يوحنا بولس الثانى على المنطقة

غدا أكثر إشراقا

د. ميلاد حنا

كما فعل السيد المسيح - بأن أعطى بعض تلاميذه من بسطاء صيادى الأسماك أسماء غير أسمائهم الأصلية، وعندما دعاهم معه لنشر رسالته، كذلك - وبذات النهج - فان الكنائس التقليدية - أعنى بهما الكنيسة الأرثوذكسية - وقد تمسكت بذات العقيدة المتوارثة القديمة، والثانية هى الكنيسة الكاثوليكية - وتعنى الكنيسة «الجامعة» - فهما فقط اللتان تتبعان هذا التقليد القديم فى تغيير أسماء قياداتهما الدينية. أما الفريق الرئيسى الثالث فهم مجمل الكنائس البروتستانتية او الانجيلية، فإن رجل الدين يحتفظ باسمه الذى ولد به طوال حياته .وفى هذا الإطار فإن الاسم الذى ولد وعاش به لسنوات طويلة قداسة البابا يوحنا بولس الثانى، هو كارول جوزيف فوجتيلا منذ أن ولد بمدينة كراكوف فى بولندا يوم ١٨ مايو عام ١٩٢٠ واستمر بهذا الاسم - ولم يشأ أن يغيره - إلى أن صار رئيس أساقفة كراكوف، أى موطن راسه فى ٢٨ يونيو عام ١٩٦٧ حيث تم منحه لقب «كاردينال» وهو أعلى لقب فى سلم الكهنوت فيما عدا البابا علي يد بولس السادس أى أن إسمه لم يتغير إلى البابا - يوحنا - بولس الثانى إلا يوم ٢٢ أكتوبر عام ١٩٧٨ عندما أقيم قداس إحتفالي (بعد انتخابه بإقتراع سرى بين الكرادله فقط ويصل عددهم إلى نحو ٧٠ وهم بمثابة الوزراء ولذلك تقاليد جميلة منشورة وفى اعقابهما يتم تنصيبه على الكرسى البابوى وهو ماتم بالفعل فى حفل حضره نحو ٢٠٠ ألف شخص، من بينهم أربعة آلاف مواطن حضروا خصيصا من وارسو يتقدمهم رئيس جمهورية بولندا موطنه الأصلى لأن البابا وهو رئيس وراس الكنيسة الكاثوليكية كلها - هو - وفى ذات الوقت وتاريخيا - أسقف مدينة روما - ومن ثم كانت الأعراف السائدة لقرون أن يكون البابا - أى أسقف روما - مواطنا من إيطاليا، ولكن البابا جون - بول الثانى كسر هذه القاعدة التى إستمرت ٤٥٥ عاما متصلة فكان جون - بول أو يوحنا بولس الثانى أول رئيس للكنيسة الكاثوليكية غير إيطالى بعد نحو أربعة قرون ونصف، ومن ثم جاء إنتخابه ليؤكد فى نهاية الألفية الثانية أي عام ١٩٧٨ أن هذه الكنيسة بالفعل «جامعة» أى «عالمية» بلغة عصرنا الحالى، وهكذا صار جون - بول الثانى علامة مميزة له بصماته على تاريخها، ليس لأنه عبر بها من الألفية الثانية إلى الثالثة، ولكن لأنه لعب دورا رئيسيا فى صياغة سياسات العالم، من خلال التعجيل بإنهاء حقبة الحرب الباردة بهذه الطريقة الهادئة والسلسة، ولكنها أيضا درامية ومؤثرة على تاريخ العالم كله وسأحاول فى الأسطر القليلة القادمة أن القى قليلا من الأضواء عن دور المواطن البولندى الأصل كارول جوزيف فوجتيلا - وقد صار بابا الفاتيكان - فى تغيير دفة التاريخ

وقد وجد هذا الأمر قبولا فى نفسى لأنه يتفق مع رؤيتى التى خصصت لها الفصل الأول من كتابى الأخير «قبول الآخر» عن أن «المشاعر الإنسانية الجماعية تحرك التاريخ» بمعنى أن محرك التاريخ - فى العصور الحديثة - هى طموحات المجموعات البشرية المتماسكة من خلال الخصوصيات الثقافية، والتى تعزز قيادات وأفرادا يقودون هذه المجموعات لتحقيق أمانيها الجماعية، ولقد قاد البابا يوحنا - بولس الثانى كاثوليك العالم - ويبلغ تعدادهم نحو المليار - لكى يقهر ويفكك الاتحاد السوفيتى الذى قهر وكبت الجانب الدينى للكاثوليك والأرثوذكس والمسلمين فى نطاق ساده بعد عام ١٩١٧ فقفل دور العبادة للأديان الابراهيمية الثلاثة فى روسيا وأوروبا الشرقية وأسيا الإسلامية.

■■■

اشتهر عن قداسة البابا يوحنا - بولس منذ توليه القيادة كثرة الأسفار والتنقلات بشكل غير مسبوق - ربما لأنه لم يكن متاحا - أو ضروريا لأى من باباوات روما السابقين، فقد كانت حركتهم قليلة والكل يحج إليهم، ومن المؤكد أن أولى سفرياته - خارج روما - كانت نقطة تحول فى حياته وحولته من رئيس طائفة دينية إلى زعيم روحى عالمى فبعد أن اعتلى الكرسى البابوى بنحو سبعة أشهر وتحديدا فى الساعة العاشرة من صباح يوم ٢ يونيو ١٩٧٩، هبطت الطائرة التى تقله فى مطار وارسو عاصمة بولندا، وما إن خرج من الطائرة حتى ركع وقبل الأرض، بينما صوت أجراس الكنائس يدوى فى كل دول أوروبا الشرقية : بولندا وتشيكوسلوفاكيا فى الوسط ثم أوكرانيا وروسيا البيضاء فى الشرق: ثم ألمانيا الشرقية ولتوانيا فى الغرب فاهتز وسط أوروبا كله، وكان فى مقدمة من أستقبلوه رئيس الدولة - وقتها - هنرى جابلونسكى (وهو ذاته الذى سافر إلى روما لحضور حفلة تنصيب البابا قبل هذه الأشهر القليلة)

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

وفى كلمة الاستقبال التى ألقاها الكاردينال فايزنسكى - رئيس الكنيسة البولندية الكاثوليكية - والذى كان قد أمضى ٣ سنوات معتقلا أى متحفظا عليه لا يبارح محل إقامته وكان ذلك قرب نهاية حكم ستالين فى الخمسينات، قال هذا الكاردينال البولندى وسط حماس وهتافات المستقبلين فى هذا اليوم الخاص جدا فى تاريخ بولندا : «أيها الحبر الأعظم.. نستودع بين يديك قلوبنا الفرحة.. وروح بولندا النبيلة المخلصة إلى الأبد» فكان نقطة بداية ألهبت المشاعر الوطنية والدينية معا.. !

وفى الساعة الرابعة بعد ظهر ذات اليوم، أعدت منصة ضخمة من الخشب، بنى عليها مذبح، بذات الطريقة التى تمت فى الصالة المغطاة باستاد مدينة نصر بالقاهرة، عندما أقام البابا يوحنا بولس الثانى نفسه - قداسا مماثلا فى صباح يوم الجمعة الماضى، ولكن الفارق الكبير والهائل هو فى الزمان والمكان والظرف التاريخى، فقد قدر عدد من حضروا القداس الأول للبابا فى وارسو قبل ٢١ عاما (وهى عاصمة بولندا التى ينتمى إليها البابا) كانوا نحو ٣٠٠ ألف شخص ملأت ميدان النصر على آخره علاوة على ألوف أخرى فى الطرق المتفرعة من الميدان.

وعلى مقربة من المنصة الخشبية التى أقيمت لصلاة القداس كان قبر الجندى المجهول وأمامه الشعلة التى لا تنطفىء وفق الأعراف العالمية، فاقترب البابا فى بطء من قبر الجندى المجهول، وبعد لحظة تأمل - وذلك كعادته التى لاحظناها فى تركيبته الإنسانية المتفردة خلال الثلاثة أيام التى قضاها فى مصر - نقول قبل قبر الجندى المجهول ثم بدأ صلاة القداس، وكالمعتاد ألقى خلال القداس كلمة «العظة» فقال ضمن ماقاله : «لا يمكن إستبعاد السيد المسيح من تاريخ البشرية فى أى بقعة من العالم، من أى خط عرض أو طول.. إن إستبعاد السيد المسيح من تاريخ الإنسانية هو خطيئة ضد البشرية.. أطلب منكم اليوم ومن خلال صلاة القربان المقدس، أن يظل لنا المسيح «كتاب الحياة المفتوح» من أجل المستقبل ... من أجل بولندا الغد.» فكانت بداية إطلاق الطاقة الروحية فى وجدان الملايين، ففى نهاية كلمته دوى التصفيق عشر دقائق متواصلة أعقبها ملأ الميدان صوت منغم كالرعد تقول : المسيح سينتصر - المسيح سيملك - المسيح سيحكم».. يا له من مشهد تاريخى .. !!

ومن عجب ان كان - من بين الملايين التى شاهدت الاحتفال عبر التليفزيون، فى أمريكا - رونالد ريجان - وكان فى ذلك الحين مرشح الحزب الجمهورى للرئاسة، وكان معه وقتها أيضا صديقه ريتشارد ألن - وهو كاثوليكى - وصار فيما بعد مستشاره الأول للأمن القومى الأمريكى، واتفق الرجلان أن ماشاهداه فى وارسو يؤكد أن تحولا هائلا ينتظر أن يحدث فى العالم الشيوعى، وأن هذا القداس وهذا الخطاب، وهذا التجمع فى ميدان النصر فى قلب وارسو، ماهو إلا نقطة بداية... وقد كان... !!

وحسبما جاء فى أحدى فقرات المرجع الذى أشرنا إليه : قام الرئيس رونالد ريجان وزوجته ومعهما وليم كيزى بزيارة البابا يوحنا بولس الثانى فى مقره بالفاتيكان، وقد أيقنت الإدارة الأمريكية أن قوة عظمى ثالثة فى العالم كافة فى دول الفاتيكان، فلديها (أى الفاتيكان) ترسانة فائقة من الأسلحة غير التقليدية سوف تقلب موازين القوى فى الحرب الباردة والتى سادت منذ عام ١٩٤٧، وكانت التوقعات توحى بانتصار الشيوعية، ولكن جون بول الثانى - ومن خلال تعبئة لأكبر تنظيم عالمى منتشر فى كل أقطار الأرض - وبإنحيازه الواضح والمعلن دون مواربة إلى الرأسمالية، واقتناعه بأن الأيديولوجية الماركسية - اللينينية ستقضى تدريجيا على الأديان فى مجملها وفى مقدمتها المسيحية والتى كانت قد تاكلت بالفعل فى أوروبا ثم فى أمريكا، كما هو معلوم ومؤكد.

ومن هنا جاء دوره - وقد صار الجانب الأكبر منه معلوما ومسجلا الآن - هو الذى رجح كفة الميزان، وهكذا وعبر عملية طويلة ومدروسة ولم تعرف كل تفاصيلها التحتية - جاء تفكك الاتحاد السوفيتى وكانت بداياتها الواضحة ممثلة فى أن البابا نظم مايعرف بحركة التضامن للطبقة العاملة البولندية، وربما تمويلها ودعمها ماديا فى مواجهة الحزب الشيوعى البولندى، فكان بداية شد الخيط الذى يربط جملة دول أوروبا الشرقية والذى انتهى بسقوط حائط برلين عام ١٩٨٩، وبعدها تفكك الاتحاد السوفيتى، فلاعجب أن كتب جورباتشوف عام ١٩٨٩ مسلما بمصيره لعملية شاهد وعاصر وقائعها.:

«يمكن للمرء أن يقول أن ماحدث فى أوروبا الشرقية فى السنوات الأخيرة كان مستحيلا بدون جهود البابا والدور الهائل الذى قام به من خلال الدور السياسى الذى لعبه على الساحة العالمية».

لقد بدأ كارول جوزيف فوجتيلا حياته هاويا للتمثيل كشاب، ثم صار شاعرا وفيلسوفا، ثم اقتحم دراسة التفاعلات الكيميائية التى تحدث فى النبات، ثم مارس الزعامة فانتخب رئيسا لاتحاد طلاب بإحدى جامعات بولندا، كل ذلك قبل أن يدخل سلك الرهبنة، ولكن ظلت رعايته كراهب ثم أسقف للعمال البولنديين، فكان ذلك مدخله لدعم وإنشاء حركة التضامن التى كان قائدها الظاهرى «فاونزا»، ومحركها الفعلى بابا الفاتيكان. فضمر فاونزا وانزوى - ومات قبل أن يموت بعد أن صار رئيس جمهورية بولندا، ولكن البابا جون بول استمر مؤثرا على الساحة العالمية.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

■■■

خلال الأسبوعين الماضيين قدم لزيارتى عشرات من مراسلى الصحف الأوروبية والأمريكية، كما زارنى بمنزلى عشرات من مندوبى محطات التليفزيون من مختلف بقاع الأرض وفى مقدمتها شبكة CNN، ولم يكونوا ـ فى مجملهم ـ إلا طارحين لاستفسار رئيسي وهو: ماهو أثر زيارة قداسة البابا يوحنا بولس الثانى على مصر، وعلى المنطقة العربية فى الوقت الحالى وفى المستقبل.

والآن وقد تمت الزيارة على خير وسط حماس جماهيرى واسع وبترحيب من الرئيس مبارك وكل أجهزة الدولة، دعنى أقف عند المحطات الرئيسية، حيث كان برنامج الزيارة معدا بعناية ودقة فائقة.

الكلمات المتبادلة بين الرئيس والبابا كانت تحمل معنى النضال «المشترك» من أجل سلام عادل وشجاع فى المنطقة، متضمنة تقديرا عاليا لدور الرئيس فى تنشيط عملية السلام، وكيف أن زيارته الأخيرة للبنان كانت شجاعة ولها آثارها الفاعلة.

ثم كان لقاء البابا مع الامام الأكبر، وقد فسرتها شخصيا بأنها تتضمن طى صفحات «جروح تاريخية» تعود إلى عصور حروب «قامت بها دول أوروبية تحت رايات «دينية» فالبابا يتطلع إلى مرحلة جديدة من الحوار والتفاهم وبناء الجسور الثقافية «الحقيقية» بين المسيحية والاسلام، وهو أمر كان موجودا وقائما بالفعل وساهم فى تنشيطه ومتابعته الأخ والصديق د. على السمان، غير أن الأشهر القليلة القادمة ستشهد حوارا «أعمق»، يؤدى إلى إيجاد مناخ حضرى يوصلنا لقبول أوسع لكل الجاليات الاسلامية الموجودة فى أوروبا وأمريكا، ويخفف من آثار الصدامات الطائفية بين الديانتين فى أماكن كثيرة من العالم، وهو أمر طرحته فى أخر مؤلفاتى ضمن مجموعة «اقرأ» بعنوان «المثقف العربى والآخر» وبه تعليقات هامة للصديق صادق المهدى ولمفكر شيعى ايرانى هام.

وبعدها كان لقاء أخر لزيارة قداسة الأنبا شنودة الثالث باعتباره بابا الكرسى السكندرى وبطريرك الأقباط الأرثوذكس ، وهو لقاء تاريخى بكل المعايير، إذ كانت المبادرة عام ١٩٧٣ من البابا شنوده. فقد كان أول بابا أرثوذكسى قبطى يزور بابا روما فى مقر كرسيه ، ومن وقتها جرت عدة حوارات هادئة وغير معلنة فى أديرة وادى النطرون حول قضايا لاهوتية معقدة يعود الخلاف حولها إلى المجمع المسكونى الذى عقد فى مدينة خلقيدونيه عام ٤٥١ ميلادية، أى منذ نحو ١٥٥٠ عاما.

وقد توج ذلك كله بإقامة صلاة قداس «مشترك» فى كاتدرائية الأقباط الكاثوليك الجديدة والتى أقيمت فى مدينة نصر حديثا، وكان لى شرف أن أدعى لحضورها، وكم كان اللقاء رائعا حيث اجتمع فى «خورس الهيكل» عشرات من «كاردينالات» الكنيسة الكاثوليكية ومقابلهم عشرات من أساقفة ومطارنة الكنيسة القبطية الأرثوزكسية حول كل من بابا روما وبابا الاسكندرية فى الوسط. وخلال الصلاة جاءت عبارة «قبلوا بعضكم بعضا» فتصافح البابا وان وسط تصفيق وحماس كل الشعب المشارك فى الصلاة، تجسيدا لانهاء حقبة كانت تعرف فى كتب اللاهوت بعبارة «تاريخ الشقاق» حيث كان صديقى المرحوم د. سليمان نسيم قد أهدانى صورة ضوئية نادرة لمجلد بهذا الاسم، ألفه الأرشيمندريتى جراسيموس مسرة اللاذقى ـ رئيس كنيسة السوريين الأرثوذكس فى الاسكندرية وطبع بالمطبعة الابراهيمية فى الاسكندرية عام ١٨٩١م ومرخص بنشره فى البلاد العثمانية من نظارة المعارف فى القسطنطينية نمرة ٤٥٥ سنة ١٢٠٧ هـ.

وهو مجلد نفيس، كان قلبى يعتصر حزنا على قرون مضت، استهلكت البشرية وعقول مفكريها فى قضايا لاهوتية معقدة (لم أستطع أن أستوعبها فى أغلب الأحيان) وربما أفكر فى الكتابة عنها فيما بعد ـ فى غير جريدة الأهرام ـ ليتعرف جيل الشباب على خلفيات قرون مظلمة مضت، أدت إلى ما نعيشه حاليا من «كراهية» لا معنى لها ولا مبرر بين المجموعات البشرية المختلفة وفى كل الأديان فى العالم، ولسوف يغسلها نور المعرفة تدريجيا بالاستنارة وقبول الآخر فيصير تجاوز الماضى بالتطلع لمستقبل «أكثر إشراقا».

ثم كانت المحطة الأخيرة لزيارة البابا لمصر فى دير سانت كاترين فى قلب سيناء، حيث تؤكد كتب التاريخ أن هذا الدير قد أنشئ فى الموقع الذى تسلم فيه موسى النبى لوحى الوصايا العشر، فكانت دعوة البابا المناسبة للمكان هى الحوار بين الأديان السماوية الثلاثة، وهى دعوة تنطوى على رؤيته لمرحلة سلام «حقيقى» بعد أن تنتهى مرحلة السلام «التعاقدية» أى الورقية وهى أشهر مخاض قادمة محفوفة بالمخاطر، نأمل أن تمر بسلام، وأن يكون موقف البابا يوحنا بولس الثانى منصفا وعادلا، فالسلام فى الشرق الأوسط سوف يشع مداه، ويؤثر على الحروب المحلية فى بقاع كثيرة من العالم وهو أمل يتطلع إليه كثيرون.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية